بين البناء الذاتي والتدمير الذاتي

"والأوضاع أشد قابلية للانفجار مما يتصور العقلاء والمجانين معا".

حين كتبت هذه الكلمات (العربي-١٨/٥)، أمسكت بي القشعريرة. ولم تكن تلك القشعريرة وليدة حمى النبوءة أو حمى التهاب الأسنان التي تعذبني أيما تعذيب.

كانت ببساطة نتاج نظرة هادئة فاحصة في ظروف صاخبة تضرب في الأرض خبط عشواء.

لقد سادت الحياة السياسية في بلادنا نظرية ذات شقين:

١- لا يمكن أن تسقط دولة اليهود في ما سقطت فيه دول مضطهدي اليهود. ونشأ هذا الاعتقاد عن مقولات غير علمية اطلاقا كالزعم بأن الذي ذاق مرارة العنصرية حتى الثمالة لا يمكن أن يصبح هو نفسه عنصريا. أو الزعم المكمل حول الأخلاقيات اليهودية التاريخية التي تلفظ العنف والهمجية.

٢- ان عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لا يسمح بتكرار الأسباب التي أدت الى اندلاع تلك الحرب، وان ميزان الرعب النووي كفيل بجعل الحرب امرا مستحيلا.

وتشير أحداث الأيام الأخيرة الى هشاشة هذه النظرية التطمينية،

فضحيّة العنصرية يستطيع أن يتحول الى عنصري بكامل معنى الكلمة. والأخلاقيات التاريخية مرهونة بالتطور السياسي والاجتماعي ولا يمكنها الصمود في مواجهة العوامل المضادة لها، القائمة والمتحركة على الساحة.

وما من ضمانة بأن عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لن يكرر مسببات الحرب، فليس من المفروض أن تتكرر المسببات ميكانيكيا وبالصيغة ذاتها، غير أنها تظل قابلة للظهور بأشكال شتى (غير تقليدية!).

واذا كان ميزان الرعب النوويّ قادرا على لجم خطر الحرب بين الدول العظمى، فها نحن شهود على امكانية اختلال هذا الميزان في منطقة الشرق الأوسط.

ان حربا نووية-كيميائية-بيولوجية، في منطقتنا ليست أمرا مستحيلا أو بعيدا .. انها امكانية ذات ملامح حادة. ويخطىء من يظن أن القرار النهائي في مسألة الحرب والسلام هو قرار دولي مرهون برغبة هذه الدولة انكبرى أو تلك.

لقد نشأ وضع خطير للغاية، ولا بد من قرار جريء يتيح امكانية الخروج من هذا الوضع. وعلى هذا القرار أن يكون اسرائيليا. فالكرة الآن في منطقة الفريق الاسرائيلي.

لم يعد لدى العرب بشكل عام ولدى الفلسطينيين بشكل خاص ما يتنازلون عنه. فمشروع السلام الفلسطيني هو مشروع عربي. وعلى حكام اسرائيل أن يدركوا حق الادراك أن البديل عن السلام بصيغته الوحيدة الممكنة، هو بديل مرعب لا نريده، لا للعرب ولا للاسرائيليين.

وعلى شعب اسرائيل أن يتحمل المسؤولية كاملة عن مشاريع

حكومته ومخططاتها ونواياها المنافية لروح العصر ولحلم السلام.

ولا أريد البحث عن قشعريرة جديدة. أكتفي باستنتاج هادىء آخر: أميل الى الاعتقاد بأن الاسرائيليين سيرجحون كفة العقل على كفة الجريمة.

وليس هذا الميل للاعتقاد ناجما عن الأخلاقيات التاريخية أو موازين الرعب الدولية، بل عن الاحساس العميق بأن قوة البناء الذاتي تظل لدى البشر أقوى، ولو بعض الشيء، من قوة التدمير الذاتي..

«العربي» ١٩٩٠/٥/٢٥